ماذا لو عاد ترامب؟

بيار عقيقي

لم تعُد عودة الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب إلى البيت الأبيض مجرّد فرضية غير معقولة، كما كانت عليه قبل أشهر قليلة، انتصاراته في أول ولايتين في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري، أيوا ونيوهامبشير، صاعقة تعريفاً جديداً لمفهوم «سحق المنافسين الداخليين». ومع أن نيكي هيلي تواجهه وحيدة، إلا أن أغلب الظن أنها لن تستمرّ طويلاً في مجابهته، وستنحنّي في وقتٍ قريب. إذاً، ما الذي قد تعنيه عودة ترامب بالنسبة إلى من هو غير أميركي؟ في أوروبا، أطلق مسؤولوها النداء للاستعداد لأميركا ترامب، وفي اعتبارهم أن الرجل العائد لن يختلف عن الذي كان عليه في ولايته الأولى (2017 ـ 2021)، بل سيكشف عن شراسة غير مسبوقة، سواء بما يتعلق بالإنفاق العسكري لدول حلف شمال الأطلسي، أو في دور الولايات المتحدة في القارّة الأوروبية، تحديداً بعد بدء الغزو الروسي لأوكرانيا في 24 فبراير/ شباط 2022. يحقّ للأوروبيين الشعور بالريبة من عودة ترامب. دائماً ما كان الرجل ينتقدّهم ويدعو إلى التراجع خطوة إلى الوراء، من أجل «أميركا أولاً».

وإذا كان الأوروبيون متوجّسين، فإن أوكرانيا ستشعر بالرعب في حال أوقف ترامب مدّها بالسلاح، لأن أي نقص في إمداد كييف بالأسلحة الأميركية يعني تجميداً غير معلن للحرب الروسية على أوكرانيا، وارتفاع احتمالات حصول مفاوضاتٍ تناسب روسيا، سواء لناحية إرغام كييف على التخلي عن أجزاء من أراضيها، أو لناحية إغلاق باب عضويتها في حلف شمال الأطلسي مستقبلاً.

بعيداً عن أوروبا، يسبّب الشرق الأوسط ومضائقه ملعاً اقتصادياً كبيراً في الغرب، إذ من تداعيات العدوان الإسرائيلي على غزّة أن مضيق باب المندب بات مسكوناً بالمخاطر، مع ما يحمله من اكلاف اقتصادية لا تبدو دول هذا الإقليم ولا أوروبا قادرة على تحمّله، وفي الشرق الأوسط أيضاً، لم ينتهِ الملف النووي الإيراني، ولا تحقق الحلّ العادل للقضية الفلسطينية. في أقصى الشرق الآسيوي، تسّ كوريا الشمالية أسنان صواريخها، وترفع الصين وتيرة تهديداتها لتايوان.

هل سيغيّر وصول ترامب شيئاً ما؟ لفهم هذا السؤال، تجب العودة إلى 6 يناير/ كانون الثاني 2021، حين اقتحم أنصار الرئيس السابق مقرّ الكونغرس، مهدّدين الديمقراطية الأميركية في معقلها. سعى ترامب مراراً إلى إبعاد نفسه عن الواجهة في مسألة الاقتحام، من دون التراجع عن اتهامه، بلا أدلّة، بحصول تزوير في رئاسيات 2020. سيكون ترامب أقربَ إلى شخصٍ يحقق ثأراً داخلياً، وسينقل الولايات المتحدة في ملفاتها الداخلية من حال إلى أخرى، وليس بالضرورة أن تكون إيجابية. كذلك، في أوكرانيا لن يكون الرئيس الأميركي الذي سيسلّم بسيطرة روسيا على أراضٍ أوكرانية، رغم أنه سيوحي بتقديم خطط وعروض سلام، غير أنه سيتمسّك بواقع أن «روسيا تحتل أوكرانيا». لن يذهب بعيداً في الملف النووي الإيراني، بل سينطلق من حيث توقّف، حين انسحب من الاتفاق النووي في مايو/ أيار 2018. تتنازل إيران، فتتنازل أميركا. طبعاً، سيحتفظ بالموقف الأميركي الرافض استقلال تايوان، من دون التخلي عنها، لكنه سيفرض المزيد من الضرائب على البضائع الصينية، حتى أنه لن يتأخّر في إعادة ربط العلاقة مع كوريا الشمالية، التي لن تجد أفضل منه لتجدّدا اقتصادياً.

أما في الشرق الأوسط، سيطاول منطق الثأر رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو. ترامب، صانع «صفقة القرن» وموقّع وثيقة «القدس عاصمة أبدية لإسرائيل» والمعترف بالسيادة الإسرائيلية على الجولان السوري، سينتقم من تنتياهو الذي تخلّى عنه، في حال استمرّ الأخير في منصبه إلى حين بدء ولاية ترامب. لكن ترامب نفسه لن يتردد في الذهاب بعيداً والدفع باتجاه قيام دولة فلسطينية، في مقابل حماية أمنية شاملة لإسرائيل.

لماذا أميركا تريد استمرار فوضى البحر الأحمر؟

جيرار ديب

منذ الخامس من نوفمبر/ تشرين الثاني، أعلن زعيم جماعة أنصار الله، عبد الملك الحوثي، أن «عيون الجماعة مفتوحة لرصد أي سفن تعود ملكيتها أو تشغلها شركات إسرائيلية»، ردّا على الحرب في غزّة، قبل أن توسع عملياتها تجاه «كل السفن» المتوجهة إلى إسرائيل.

والملفت في سياسات الولايات المتحدة، أنها بدل أن تستخدم نفوذها لإقناع الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على وقف إطلاق النار في غزّة، نفّذت إدارة الرئيس الأميركي بايدن، إلى جانب المملكة المتحدة، سلسلة من الغارات الجوية ضد أهداف الحوثيين في كل أنحاء اليمن، مع الاستمرار في تزويد إسرائيل بالقنابل والأسلحة الأخرى لمواصلة حملتها في غزّة. وردّ البنتاغون على هذه الهجمات بإنشاء عملية حارس الازدهار، وهي مبادرة أمنية غربية لحماية الشحن بالقرب من باب المندب، وهو الطريق المستقيم الضيق الذي يفصل اليمن عن القرن الأفريقي. وتمر حوالي 30% من كل الحاويات العالمية وحوالي 12% من التجارة العالمية عبر باب المندب.

وفي إطار تأجيج الصراعات الدولية التي باتت تمتلك الولايات المتحدة الدكتوراه فيها، بسبب نشاطها الدائم في إشعال الحروب بدل إحلال السلام أو السعي إلى تسويات للأزمات القائمة، اشتعلت جبهة اليمن، وبدأت أنظار واشنطن تتطلّع إلى المكاسب التي ستجنيها من توتير تلك المنطقة. كتبت صحيفة Global Times الصينية أن المجمع الصناعي العسكري الأميركي قد يستفيد مرةً أخرى من تصعيد المواجهات على ضفاف البحر الأحمر، كما استفاد من ذلك في الأزمة الأوكرانية. فشركتا Lockheed Martin و Northrop Grumman الأميركيتان للدفاع، أظهرتا في الآونة الأخيرة أفضل مؤشرات النمو لسعر أسهمهما منذ عام 2020.

أظهرت البراغماتية السياسية في الإدارات الأميركية المتعاقبة، أن واشنطن تنظر بعين الربح وإيصال الرسائل للتوترات التي تشهدها الساحات الدولية. فما يحصل من تطورات ميدانية وعسكرية في البحر الأحمر قد لا يزعج الولايات المتحدة، حتى ولو عبّرت عن قلقها على التجارة الدولية وأنها تعمل على حمايتها، لأنها تحتاج إلى مثل هكذا حروب، كيف لا وهي قبل شهر من طوفان الأقصى وقعت على اتفاق دولي في نيودلهي أثناء انعقاد قمة مجموعة العشرين مع كل من الهند وإسرائيل والسعودية والإمارات ودول الاتحاد الأوروبي، على ما عرف بـ«الممر الاقتصادي العالمي»، الذي يتضمن ممرّا برياً كشف عنه موقع «والا» الإسرائيلي عندما ذكر أنه «تُوّج التشغيل التجريبي لخط نقل بري جديد بالشاحنات عبر موانئ دبي مروراً بالسعودية والأردن، بالنجاح خلال الأسابيع الأخيرة، فيما أكملت الشاحنات العشر الأولى الطريق الطويل من موانئ الخليج العربي إلى إسرائيل». يوفّر هذا الجسر البري الذي حصل على موافقة وزارة الدفاع وحكومة إسرائيل، بديلاً أسرع للممرّ عبر قناة السويس، ولكنه يهدف إلى تشكيل قوة ضغط على مصر لدفعها إلى تفعيل التعاون من الجانب الإسرائيلي، سيما في إقامة منطقة عازلة على حدود رفح مع قطاع غزة، حيث أفادت صحيفة يديعوت أحرونوت بأن الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي يبدي استعداداً للتعاون مع إسرائيل من أجل قطع الطريق على حركة حماس في محور فيلادلفيا الحدودي من مصر.

ليس هذا وحسب، بل تريد واشنطن ممارسة المزيد من الضغط على الجانب المصري لكبح اندفاعته نحو التطبيع الكلي مع روسيا، قائلاً إنه يتمّ الإعداد لمشاركة بوتين في احتمال مهم للغاية يجري في مصر قريباً، وقال إن بوتين سيشارك في احتفال فعالية صب خرسانة المفاعل الرابع في محطة الضبعة النووية التي تشيدها روسيا في مصر، مشيرًا إلى أنه يتمّ الإعداد لذلك. فعدم التحوّل المصري في الموقف، وعدم الذهاب بعيداً في خيارات الجمهورية الفرعونية بيقين من أولويات إدارة بايدن.

تحتاج الولايات المتحدة إلى الحرب في البحر الأحمر بهدف توتير منطقة لا تؤثر خياراتها الدولية، بل تشكل مصدر قلق وإزعاج لمنافستها الصين التي تنظر إلى فرض الاستقرار فيها لتسهيل ممرها «الطريق والحزام». لهذا لن تستقر الأوضاع على المدى المنظور في المنطقة، حتى ولو توقفت حرب غزة أو تدحرجت الأحداث هناك إلى حرب كبرى، فهي على استعداد لكل السيناريوهات المنتظرة.

(كاتب لبناني)

انقطاعات النوم

سمر يزبك

لنبدأ بقصةٍ قصيرة، سنفترضُ أنّها حكايةٌ بسيطة يرويها الأهل لأبنائهم قبيلَ النوم، عن أطفالٍ يعيشون قربَ البحر في مكانٍ يسمّى غزّة.

عنوانُ القصة: انقطاعاتُ النوم! ... بالتأكيد هذا غريب، ليس لأنّ عنواناً كهذا لا يمتُّ على الإطلاق بأيّ صلةٍ مع رواية خوسيه ساراماغو «انقطاعات الموت»، بلْ لأنّها تتجاوزُها في غرائبيّتها حدَّ الذهول، فذلك المكانُ المسمّى غزّة، وإنْ كان من السهل حقّاً إيجاده في خرائط العالم، لكنّه اليومَ يمتلك من صفات الخيال أكثر مما يطيقُه الواقع. في وسعنا اختصار القصّة بجملةٍ قصيرة: أطفالُ غزّة يموتون من انقطاعات النوم! ... ببدأ زمنُ الحكاية من تاريخ 7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، بل على وجه التحديد، بعد مرور شهرين على هذا التاريخ، حينَ ذكرتْ صحافيّةٌ أميركيّةٌ هذا الخبرَ، ليتواتر بعد ذلك الكثيرُ من الأنباء والتقارير التي تخبرنا عن هذا الشكل الغريب لموت الأطفال. موتٌ مبتكر، مصنوعٌ بأناقةٍ ونعومة، لا يمكن مضاهاة وحشيّته إلّا بإخفائه هكذا ضمنَ كلماتٍ مجرّدة تشكل خبراً باردا صنّوع المشاعر، وكأنّ هذا الموت هو من مضاعفات مَرَض شائع انتشر أخيراً، يقول الخبرُ إنّ أطفالَ غزّة يموتون بالسكتة القلبيّة نتيجةَ عدم قدرتهم على النوم، وبذلك قد يكونون من المخلوقين النّاجين، فقط لأنّ أجسادهم الغضّة لم تتحوّل إلى أشلاءٍ ودماء معجونةٍ بالغبار، كغيرهم من الأطفال القتلى. الخبر لا يأتي من مجرد معلومةٍ إحصائيّة، بلْ الأساس فيه يستند إلى تفسير علميّ بأنّ الرعب الذي سبّبته أصواتُ القصف الإسرائيليّ، المستمر هناك أكثر من ثلاثة أشهر، رفع معدّلات الأدرينالين في أجسادهم إلى درجةٍ جعلتهم عاجزين عن النوم خوفاً وتوتّراً، وهو ما أدّى بدوره إلى تعطل قلوبهم وتوقفها عن العمل. ... هكذا فجأةً ينامون مرّةً واحدة وإلى الأبد، من دون أيّ ضجيج!

يكتب أرشي بلاند، الصحافي في «الغارديان» إن الأرقام التي أكدّتها وكالاتُ الإغاثة الدوليّة للضحايا في القطاع ليست دقيقة وشاملة، ويضيف إنّ الحروبَ على مرّ التاريخ دائما ما تبتلع ضحاياها، وهو أمرٌ يغرّوه، كما كتب، إلى ظاهرة ضباب الحرب، من دون أن يشير هنا إلى أنّ القصف الإسرائيليّ المستمرّ على البيوت والمستشفيات ومنع المساعدات الإنسانيّة هما السببُ الرئيسيُّ لهذه الأعداد من القتلى، في عمليةِ إبادةٍ معلنةٍ وعلنيّة، ويكتفي كغيره من الصحافيّين، بذكر أرقام باردةٍ مجرّدة: هناك ثلاثةٌ وعشرون ألفاً لقّوا حتفَهم، سبعةُ آلافٍ ما زالوا مفقودين تحت الأنقاض، 70% من الضحايا هم من النساء والأطفال، منهم عشرةُ آلاف طفل. عشرة آلاف طفل! ... تتحدّث الاحصائياتُ هنا عن الأطفال ضحايا القصف والجوع فقط، ولا تتحدّث عن أطفال انقطاعات النوم، فهؤلاء لم يدخلوا في أعداد الضحايا. لم يجرِ أيُّ إحصاءٍ عن موتِ كهذا، ولا تتحدّث عن أطفالٍ آخرين قتلهم الخوفُ بسكتةٍ قلبيّة، بينما كانوا ملاحقين من جنديٍّ إسرائيليٍّ أو طائرة كواد كابتر مسيّرة، ولا عن الذين فقدوا أصواتهم وهم يرون آباءهم وأمهاتهم أشلاءً أمام أعينهم، ولا من فقدوا أبصارهم أو أطرافهم أو من فقدوا كلّ شيء....

تجربةُ العمل على التحديق في الموت السوريّ الذي لم يزلْ مستمرّاً بتنويعاته وفنونه، تمكّننا من القول بثقةٍ إنّ إعطاءَ الأرقام هو أسوأ ما يمكن القيام به، لأنّ الأعدادَ الحقيقيّة للضحايا تكون غالباً أكثرَ من العددِ الموثّق المُعلن عنه، ولأنّ الأشلاء البشريّة في وحشيّة الحرب تستحيلُ إلى أجزاءٍ من تراب، ويصير حديثُ المؤسسات البيروقراطيّ عن أرقامٍ محضِ هراءٍ، نلجأ إليها أحياناً لتمثيلِ صوت الضحايا، أو لمحاولة استجلابِ العدالة لهم، أو ربّما فقط لنعفي أنفسنا من المسؤولية، في محاولةٍ لنخيّط ذلك الجرحَ الغائرَ في أرواحنا، والذي يُسمّى في إطارٍ أضيقَ للتحرّك، يضم بالذات الأطراف العربية الأكثر تماسّا مع هذه القضية، والأكثر تأثيراً على واشنطن، من أجل تركيزِ الجهود والسعي إلى تحقيق نتائج ملموسة في أقصر الآجال. ويتجه التفكير هنا إلى دول في مقدّمها مصر والسعودية والأردن وقطر.

في وسع هذه الأطراف العربية أن تأخذ زمام المبادرة بوضع العلاقات العربية الأميركية على المحكّ، كما حدث من قبل في مواضيع، مثل الطاقة وإنتاجها وأسعارها، ولم تترتب على ذلك نتائج دراماتيكية، علماً أن مطلب وقف الحرب جزء ثابت في الأدبيات السياسية المعهودة للدول والمنظمات الإقليمية والدولية، ولا يطلب الحرب الكثير حين يدعون إلى وقف الحرب، ولن تتنازل واشنطن عن كثير حين تستجيب لمطلب غالبية الدول، ومنها العربية، وفي البدء والمنتهى، ليس من حقّ تل أبيب أو واشنطن أو أي جهة أخرى الشروع في حرب إبادة جماعية ضد شعب عربي، إن يعيد ذلك العالم إلى الحقبة الاستعمارية المظلمة، إلى ما قبل إنشاء الأمم المتحدة واعتماد مواثيق القانون الدولي وحقوق الإنسان.

(كاتب من الأردن)

> للموت مَعنىً كثيفٌ يحضُر دائماً عبر غيابه، كما كان في رواية ساراماغو «انقطاعات الموت»، لكنّه في غزّة مقيمٌ لَزِجٌ لا يفارقُ واقعَ الغزّيّين ولا خيالهم

الذنب في أنّنا ما زلنا نعيش! ولكنْ هل هناك من يستطيع أن يدرس، على سبيل المثال لا الحصر، حالةَ الضحايا هؤلاء؛ الأطفالُ الذين يموتون بهدوء نتيجة توقّف قلوبهم عن العمل؟ كيف؟ وأين؟ كم عددهم؟ الأطفال الذين يعيشون في قطاع غزّة ويسمعون أصوات القصف ويدفر الأدرينالينُ قلوبَهم، من يستطيع أن يُحصي نبضات أوردتهم قبل انفجارها، من ينظر إلى فجيعة أمّهاتهم، كيف نردُّ أسماءهم بين الضحايا مع موتهم الأنيق هذا؟ ثم من قرّر أنّهم ليسوا ضحايا لمجرّد أنّ القذائف لم تمزّق أجسادهم. من يعرفهم أساساً؟ وموتهم لا يدخل في حسابات الأمم المتحدة ولا مؤسّسات العناية بالطفولة، ولا في مقالات كبار الصحافيّين حول العالم. موتُهم أنظفُ من التلصّص عليه، ولكنّه يخفي الكثير من خسارات الحرب. لنترك الحديثَ عن الأرقام وعن المؤسّسات التي تريدنا أن نستوعبَ الكارثة بأدواتٍ إحصائيّةٍ بيروقراطيّة، فهؤلاء الأطفال الذين سيوصَف من يتبقّون منهم على قيد الحياة بأنّهم ناجون، ما زالوا وجبةً طازجةً على مائدة الموت، طالما بقي العالمُ عاجزاً عن فرض وقفٍ لإطلاق النار. هذه هي الحقيقة، إنّهم المستهدفون الأكثر هشاشةً، الذين يموتون حقيقةً من الخوف أحياناً ولا يأتي على ذكرهم أحد، إذْ إنّهم يموتون ببراعة.

تكون الكارثة أحياناً صامتة؛ مثل قدرتنا على رؤيتها وابتلاعها في حناجرنا، مثل اعتراضنا الخجول عليها ومثل عجزنا الدائم حيالها. وفي الوقت نفسه، تنطوي الكارثةُ أيضاً على عدّةِ تمثلاتٍ خفيّةٍ وقائمةٍ ومتكرّرة، فهي من وجهة نظرِ الأدرينالينُ قلوبهم، من يستطيع أن عينُ المتلصّص من التحديق في أجسادهم، إنّهم بلا اعتبارٍ وبلا دراية يحمون حرمةً ما تبقّى لهم، ويبعدون الذباب عن جراحهم الطازجة ويمنعون قلوبَهم الغضّة أن تستحيلَ إلى مسرح للفرجة، وهم في ذلك يمضون بهدوءٍ مع كرامتهم جنباً إلى جنب، هكذا مع كلّ تلك الوحشيّة اللامتناهية، رُبّما هم، ولسبب غامض، يعرفون أنّ تلك الجرائم لن تهزّ الضمير البشريّ إلّا في حال حصوله على المزيد من صور الماسي والمجازر، لكنّ هذا لا يعنيهم، ولم يخطرْ حتّى في بالهم، لقد حظي أولئك الذين لم يتحوّلوا إلى أرقام بموتٍ غريب، يجعلهم في مرتبة الضحايا اللامرئيّين.

للموت مَعنىً كثيفٌ يحضُر دائماً عبر غيابه، كما كان في رواية خوسيه ساراماغو «انقطاعات الموت»، لكنّه في غزّة مقيمٌ لزِجٌ لا يفارقُ واقعَ الغزّيّين ولا خيالهم؛ كبارهم، وصغارهم، نساءهم، ورجالهم، منذ أن احتلّ القراصنةُ غزّة، ومنذُ أن فرضوا الحصار عليها، هم القراصنة أنفسهم الذين حاولوا منعَ ساراماغو ذاته من زيارةٍ لمخيم جنين إثرَ مجزرةٍ سابقة، لا لسبب مهمّ، سوى روايةٍ كان كتَبها بعنوان «حضار لشبونة»، ولم يدر ساراماغو وقتها ربّما عن التشابهات التي ستثار بين روايته وروايةٍ لم تُكتب بعد، قدْ تكونُ بعنوان «حصار غزّة».

(رواية سورية)

الشرب من بحر غزّة

عبدالله هداري

من أصدق المعاني غير المباشرة التي تضمنها عنوان كتاب الصحافية الإسرائيلية أميرة هاس «Drinking the Sea at Gaza» (صدر في 1999)، أن بحر غزّة سيشرب منه الجميع، قريبين كانوا أم بعيدين، فهو يحفظ للمتخاذلين حقّهم للشرب من الجحيم! تجسيدا لهذا المعنى، أقدمت شبكة كارنيغي العالمية على استقراء 14 من خبرائها في العالم، عن تداعيات أحداث غزّة وآثارها على العالم، وأخبارت منسّقة الاستقراء مها يحيى (مديرة مركز مالكوم كير ـ كارنيغي للشرق الأوسط) جعل اقتباسها «... غزّة هي جرحُنا المفتوح» من أقوال أميرة هاس، دليلاً على ما تختزنه وتختزله غزّة حول تاريخ هذا الصراع بتعبيرها. والتجسيد الآخر لهذا المعنى ذلك التأثير العالمي الواضح، الذي أكّدته وجهات نظر جل هؤلاء الخبراء، مؤكّدين رجوع القضية الفلسطينية إلى اعتلاء قمّة القضايا السياسية والفكرية العالمية. وقد أحسنت المحرّرة الاستعارة، حينما اقتبست عبارة ذلك الطفل الفلسطيني، وهو يجيب الصحافي عن سؤال/ ماذا سيفعل عندما يكبر؟ فأجاب الطفل: «إننا أطفال غزّة لا نَكبُر»، مبيّنة أن مسعى الإجابة عن السبب هو ما تجسد بعد 7 أكتوبر في توارد واختلاف وصراع سرديات عديدة بشأن طبيعة ما يحصل وأصوله وامتداداته المستقبلية، متبيّنٌ جانبا منه وجهات نظر الخبراء، فماذا عساها حملت من جديد؟

شغلت نظرة الاتحاد الأوروبي والأوروبيين حول ما يحصل في غزّة، وأشكال تعاملهم الفعلية والممكنة مع الحدث، حيّزا مهما من الاستقراء، غير أن الإجابة كانت مخيّبة للتوقعات، ذلك أن القارئ يمكنه اختزالها في موقفٍ أكّد عليه المستجوبون: انقسام في الموقف الأوروبي، في صورة يمكن وصفها بالموقف العاجز عن التجدّد وفق سياسات العالم المتحوّلة، أو المتناسبة مع حجم ما يحدث في غزّة. ولذا، لم تجد مديرة كارنيغي أوروبا، روزا بلفور، غير الدعوة إلى استعادة تجديد التمسك بالموقف الأوروبي التقليدي من النزاع، ووضعه موضع التنفيذ (تقصد الالتزام بحل الدولتين والعودة إلى حدود 1967). بينما ستزيد مديرة تحرير مدونة «أوروبا الاستراتيجية»، جودي دمبسي تأكيد هذه الصورة المرتبكة، بتأكيدها أن الموقف الأوروبي الخارجي غير موحّد سياسياً، بالأخص تجاه القضية الفلسطينية، مع تأكيدها فيما يشبه تصويراً شديد الخيبة؛ أن أوروبا ليس لها أي تأثير في الحرب في غزّة؛ وبغض النظر عن الحقيقة الواضحة في أن روسيا هي نظير جلّ المشاكل مستفيدة أكبر من الأحداث في غزّة، حسب خلاصة توماس دي فال (زميل أول في مركز كارنيغي أوروبا)، نعتقد أن خلاصات ريتشارد يونغ (زميل أول في برنامج الديمقراطية والنزاع والحوكمة في مركز كارنيغي أوروبا) كانت الأكثر حنكة ومعقولية؛ فقد اعتبر أن عدم التدخل والوقوف على مسافة متساوية من الطرفين، كما يصرّح الأوروبيون، أو لنقل بعضهم، ليس كما نعتقده، موقفاً حياديا على أرض الواقع، نظرا إلى الاختلالات الواقعية في توازن القوى بين إسرائيل والفلسطينيين، وتكمن أهمية هذه الخلاصة، أيضا، في تعرية يونغ مسألة أخرى، أو لنقل عجزاً بنيويا آخر ينخر جسم القارة العجوز، أن ما تدّعيه من حيادية إنما هو محاولة، حسب عبارته، «للتخفيف من التداعيات المتدة للنزاع على الأزمات التي تستوجب حاليا الاهتمام داخل أوروبا نفسها».

أما تصريحات الخبراء بخصوص الداخل الأميركي، سواء على مستوى الرأي العام أو النخب السياسية، فاهم خلاصاتها رصد التحول الذي بدأ بطرأ على الجيل الجديد من الشباب، والذي وصفه جايك والاس (زميل أول غير مقيم في برنامج الشرق الأوسط في مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي) بالتحول اللافت والخطير على مستقبل الديمقراطيين في الانتخابات المقبلة، ونعتقد أن خطورته تشمل الجمهوريين أيضا وكتلة الرأي التقليدية. وإذا كان تصريح والاس ذا حيادية كبيرة، ومهنية أكاديمية رفيعة في نظرنا، فإن الباحثة سارة باركيس (الزميلة الأولى في البرنامج نفسه) لم يكن موقفها سوى تكريس لأزمة النخب الغربية، التي لم تستطع بعد التغلب على نفسها في موضوع القضية الفلسطينية. ولذا، بدت باركيس جدّ متحيّزة في خلاصاتها للرأي العام التقليدي الأميركي المساند لإسرائيل، بل بدت كأنها تكتّب لأجل التنبيه على ضرورة الحفاظ على هذا الموقف، وليس بنية رصد أي مستجدّات داخل المجتمع الأميركي في جل مجالاته الحيوية، عكس تصريحات زميلها والاس، فالبالحاسون أنفسهم يشربون من بحر غزّة ولا بد لهم من ذلك!

وبخصوص الموقف الأفريقي، لم يحمل الاستقراء جديدا يُذكر، غير تسجيل الإجماع العام في الموقف الذي أبدته الدول الأعضاء الخمسة والخمسون في الاتحاد الأفريقي تجاه القضية الفلسطينية، والذي سار في اتجاه تأكيد حلّ الدولتين وضرورة إسهام المجتمع الدولي في تسهيل إحلال السلام والأمن. هذا من دون أن يعني ذلك عدم وجود تباينات داخل الدول الأفريقية نفسها، والتي تميّزت مواقف بعضها، كنيجيريا وكينيا (لاحقا)، بالحذر الدبلوماسي، عكس موقف جنوب أفريقيا ودول شمال أفريقيا ذات التوجّه الواضح في دعم حقّ الشعب الفلسطيني، والخلاصة الكبرى أن الموقف الأفريقي يتحوّل بناء على تحوّلات شبكة المصالح وتحولات الرأي العام الدولي، من دون أن ننسى السمعة التي انهارت لدولة إسرائيل، نتيجة للدعوى التي رفعتها جنوب أفريقيا، والتي مهما كانت النتيجة الصادرة عن محكمة العدل الدولية تجاهها، فإنه «من الآن وصاعدًا، لم يعد سهلاً ربما على العالم التغاضي عن

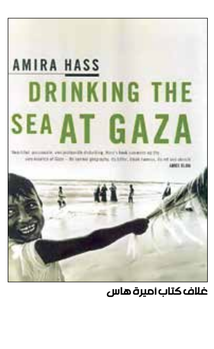

غلاف كتاب أميرة هاس

> انقسام في الموقف الأوروبي، في صورة يمكن وصفها بالموقف العاجز عن التجدّد وفق سياسات العالم المتحوّلة، أو المتناسبة مع حجم ما يحدُث في غزة

انتهاكات دولةٍ كثيراً ما بقيت فوق المساءلة والمحاسبة»، حسب عبارة مها يحيى في مقالتها الأخرى «الموت وعواقبه في غزّة». أما الموقف الصيني من الأحداث، وعلاقة ذلك بنفوذها المتنامي في الشرق الأوسط، فإن تصريحات تونغ جاو (زميل أول في مركز كارنيغي الصين) تكشف أن الصين لم تقدّم أي موقف جديد، سوى الحفاظ على سياستها الداعمة للأمن والاستقرار في الشرق الأوسط، والذي يخدم، بطبيعة الحال، سياستها التوسّعية على المستويين، الاقتصادي والتنموي. ولذا، صورتها الحالية أقرب إلى الموقف المحايد صوريا والجامد عند نقطة حل الدولتين وسيلةً لإنهاء الصراع. ولعل الخلاصة المسجّلة على موقف الصين هنا، والتي نستشفّها بشكل غير مباشر من تحليلات يونغ، تؤكد أن الفعل السياسي الصيني لا يزال بعيدا عن التناسب مع حجم خطابها الإعلامي المفترض. ولهذا، نجدر بناء على ملاحظات يونغ أيضا، ذات خطاب مزدوج: صيني داخلي وصيني خارجي، وهي صورة تعكس حقيقة طالما التصقت تاريخيا بالأنظمة الشيوعية الشمولية، ثم إن وضعها هذا يبيّن أن الصين لا تزال بعيدة عن لعب دور سياسي أكبر مما أقدمت عليه، في تباين للسرعات بين براعتها التكنولوجية المدهشة وتأخرها المخجل على مستوى الإبداع السياسي.

هذا، ومن دون أن نقف عند تأثير الحرب على وضع المهاجرين في أوروبا، وأثرها على ديمقراطيات هذه الدول، والتزاماتها تجاه القضية الأوكرانية، أو على دول منطقة القوقاز، أو صعود الموقف البرازيلي المندّد بالرد غير المقبول من وطن بديل للفلسطينيين، وكذا تنامي الانقسام داخل الصف الهندي بسبب الحرب في غزّة، بين حزبي بهاراتيا جاناتا (الحاكم) والمؤتمر الوطني الهندي المعارض ...إلخ، وإلى جانب هؤلاء، فإن بحر غزّة تشرب منه الدول العربية والإسلامية أيضا ولا تزال، وإن لم يسلط الاستقراء الضوء على وضعية هؤلاء، لكن الخلاصة الكبرى قد جسّدها الفشل الكبير للاتفاقيات الإبراهيمية، أما المذاق الأبرز لطعم بحر غزّة، فقد لخّصه المفكّر العربي عزمي بشارة في عبارته: «ليست الحقيقةُ ضحيةَ الحرب الأولى كما يقال، بل تسقط الأخلاق قبلها».

(كاتب مغربي)

نصر مؤقت للعدالة

معن البياري

لا يحسُن وصفُ الذي سُمع وشوهد أمس في القاعة المُهابة في قصر السلام، مقرّ محكمة العدل الدولية، بأنه صفعةٌ لإسرائيل، على ما قد يستطيب بعضُنا القول، ليس فقط لأن التعبير مبذول، بل أيضاً لأن منطوق البيان الذي تلته رئيسة المحكمة، الأميركية جوان إي دونوغو، لم يقصد أمراً كهذا، وأن لا صلة لمهمّات المحكمة المعتبَدة به، وأيضا لأن أهل غزّة، في مظلوميّتهم المشهودة، لا يطلبون من مؤسّسات العدالة الدولية صفع إسرائيل، فلطالما صدرت عن الأمم المتحدة وعن مجالس وهيئات فيها قرارات وبيانات صفعت إسرائيل بإدانات واستهجانات ومطالبات. ثم لم تتنزّل على أي أرض. وإنما يطلبون، من بين كثير يطلبونه، أن يُنصف العالم الأمَمي، أن ينقذهم من الإبادة الجماعية، أن يوقف محدلة التموين التي تستهدفهم، أن يُنجيهم من كل أوجه الإسناد العسكري والسياسي والدبلوماسي الذي تتزوّد به دولة العدوان والغزو من حلفائها، الولايات المتحدة وغيرها. وأيا تكن مواطن الوجاهة في «زعلنا» المحقّ من أن بيان المحكمة لم يأت على وقف العمليات العسكرية تدبيراً احترازياً، ربما لأن الطرف الآخر في الحرب حركة عسكرية وسياسية، وليس دولة، إلا أن لنا أن نشعر بمقادير من السرور بالذي تضمّنه البيان من إجراءات وتدابير احترازية طالب به إسرائيل.

ومع الاصطفاف مع وزيرة خارجية جنوب أفريقيا، ناليدي باندور، في استيائها من عدم طلب المحكمة الدولية من إسرائيل وقفاً لإطلاق النار، فإن في الوسع أن يجتهد أهل السياسة، الفلسطينيون والعرب، بنشاط دبلوماسي، من أجل استصدار قرار ملزم من مجلس الأمن بهذا، بناء على الذي «فرَضه» بيان لاهاي، فقد تضمّن ما يمكن أن يبنوا عليه حراكا سياسيا مستجدّا، فلا يمكن وقف أفعال القتل والتدمير وكذا حماية المدنيين، وأيضاً ما اشتبه بها القُضاة المنصفون هناك بأنه ارتكاب إبادة جماعية. إلا موقف العدوان، فلسنا، في الأساس، نتحدّث عن جيش يعرف أخلاق الحروب في الحروب، بل لا يجوز، في محمل ظاهر، القول إن هذا الجيش يخوض حربا ضد الذين صنعوا عملية 7 أكتوبر وخطّطوا لها، وإنما يرتكب جرائم معلومة ضد الآمنين في البيوت والمستشفيات ومدارس وكالة الغوث ومراكز الإيواء، وهذه ليست، أبدا، حربا يرمي منها إلى الإجهاز على «حماس» وإعادة الرهائن الإسرائيليين.

لا تستخدم هذه السطور المتعجلة لغة القانون في التعبير عن الغبطة بما يمكن حسبانه انتصاراً مؤقتا للعدالة الدولية، فلهذه اللغة ناسُها، وإنما تتوسّل لغة السياسة والأخلاق، فتتوجّه أولا إلى حكومة جنوب أفريقيا، وقد بادرت إلى هذا الفعل الاستثنائي، الرفيع في قيمته التاريخية، بدافع أخلاقي وإنساني، وإحساس عالٍ بالمسؤولية في المجتمع الكوني الواسع. ولم تكن دولةً كبرى، وذات إرث نضالي معلوم، وصاحبةَ وزن ودور في محيطها وفي فضائها الأفريقي، بل وفي السياق العالمي العريض، لتُغامر بمكانتها، فلا تحسب بدقّة ما نوت فعله ثم فعلته. ولنا أن نقول إن الذي صنعته جنوب أفريقيا، في واحدٍ من وجوهه، كان اختباراً للمحكمة نفسها، اختباراً لمنظومة العدالة الدولية، كما صاغتها شرعية الأمم المتحدة ومدوّنات هيئاتها المعنيّة بالسلم والأمن، بحماية الناس وتأمينهم من القتل والتجويع والاحتلال والاعتداءات، ومن كل صنوف جرائم الإبادة التي لم تتوقف إسرائيل عن اقترافها منذ كانت عصاباتٍ عشية نكبة التهجير الأولى في 1948 وغاداتها، وصولا إلى نكبة غزّة الراهنة، الأشدّ شناعة لا ريب.

ليعذرنا القضاة المحترمون، في هيئة محكمة العدل الدولية، لو صارحناهم بالقول إن ملايين العرب، بفعل ما يتراكم فيهم من إحباط، وبسبب ما يحتلّهم من يأس، من المجتمع الدولي ومؤسّساته السياسية والقانونية، كانوا يتحسّبون من قرارات سيئة، كأن لا تقول باختصاصها في القضية التي بسطتها أمامهم جنوب أفريقيا. وكانوا يخشون صدمةً من تأثيرات سياسية عليهم، فلا نسمع كثيرا مما سمعناه أمس. ولكن، طيّبٌ أن العدالة انتصرت مؤقتا بما صوّت عليه أغلبية كبرى من هؤلاء القضاة، وهذا مطمئنٌ ومريح، ريما ينقص منسوب الخيبة فينا. شكرا لكم.

فلسطين ليست للبيع أو المصادرة

صلاح الدين الجورشي

تخلى اليمين الديني الصهيوني عن أسلوب المناورة والخداع، وأصبحت تصريحاتُ زعمائه صريحة ومباشرة. هم يعلنون، بوضوح، أنه قد حان الوقت للتخلّص من الشعب الفلسطيني برمته، لكنهم على استعدادٍ لأن يقسموا المسألة إلى مراحل. الأولوية الآن لسكان غزّة، ثم سيأتي دور سكّان الضفة الغربية والقدس. لم يعد ذلك خافياً على أحد. تذرّعوا في البداية بالهجوم الصاعق لـ«7أكتوبر». لكن الموضوع الآن لم يعد يتعلق بالقضاء على حركة حماس، وإنما أصبح هدفهم المعلن الحصول على غزّة بدون أهلها، فعندما استعمروا فلسطين التاريخية زعموا أنها «أرض بلا شعب»، أما اليوم فهم يعملون على اختطاف

هل استعدّ العرب لمرحلة ما بعد توقف إطلاق النار؟

حسن نافعة

نُشرت مقالات عديدة بشأن ما قد تنتهي إليه عملية طوفان الأقصى، وما أعقبها من حرب إسرائيلية شاملة على قطاع غزّة، من نتائج. ولأن معظمها تناول «مرحلة ما بعد حماس»، فقد عكست هذه المقالات بشكل عام ميلا واضحا لدى معظم الكتّاب، خصوصا الإسرائيليين والغربيين، لفرضية أن إسرائيل ستخرُج من الأزمة الراهنة منتصرة في النهاية، وأن الحرب التي أعلنتها على الشعب الفلسطيني كله، في القطاع وفي الضفة الغربية على السواء، ستنتهي حتما بتدمير «حماس»، وبإسقاط حكمها في غزّة، وستمكّنها ليس من استعادة أسراها المحتجزين في غزّة فحسب، وإنما أيضا من إعادة فرض سيطرتها الأمنية على القطاع، حتى لو اضطرّت تحت ضغوط دولية أو عربية لسحب قواتها العسكرية منه.

وبعد أكثر من ثلاثة أشهر ونصف على اندلاع هذه الأزمة الكبرى، ما زالت «حماس» صامدة، بل وقادرة أيضا على إلحاق خسائر بإسرائيل أكثر بكثير مما لحق بها من خسائر في أيٍّ من الحروب العديدة التي خاضها الجيش الإسرائيلي ضد الجيوش النظامية للدول العربية. لذا بدأت تظهر منذ أيام، وعلى استحياء شديد، مقالاتٌ تشكّك في قدرة إسرائيل على تحقيق كل الأهداف التي أعلنت أنها تصرّ على تحقيقها، وأيضا لإظهار حجم ما قد تنطوي عليه الأهداف المعلنة من تناقض واضح، خصوصا التناقض بين هدف تدمير «حماس» في مقابل هدف استعادة جميع الأسرى وضمان عودتهم أحياء إلى إسرائيل. صحيحٌ أن الولايات المتحدة كانت، حتى كتابة هذه السطور على الأقل، لا تزال تتبّنى بالكامل موقف نتنياهو الرافض الوقف النهائي للعمليات العسكرية، وتقصر طلباتها من إسرائيل على مجرّد تشجيعها على إبرام «هدن إنسانية مؤقتة»، أو تقليل الأضرار التي تصيب المدنيين جرّاء عملياتها العسكرية، غير أن مؤشّرات جديدة بدأت تطفو تباعا على السطح، تؤكّد استحالة أن تتمكّن إسرائيل من تحقيق جميع أهدافها بالقوة المسلّحة، وبالتالي، ستضطرّ، آجلا أو عاجلا (على الأرجح عاجلا وليس آجلا)، للقبول بوقف نهائي لإطلاق النار والدخول مع «حماس» في مفاوضات غير مباشرة لإبرام صفقة شاملة لتبادل الأسرى والاتفاق على ترتيبات ما بعد وقف إطلاق النار.

من هذه الإشارات تصريحات رسمية صدرت أخيرا عن رئيس الحكومة الإسرائيلية، نتنياهو، ونقلتها وسائل إعلام إسرائيلية تؤكّد أنه لا يزال يرفض طلب «حماس» وقفاً نهائياً لإطلاق النار شرطاً لاستئناف التفاوض في صفقة شاملة لتبادل الأسرى، لكنه أبدى استعدادَه لقبول وقف نهائي لإطلاق النار، ولكن في حالة واحدة، حصوله على «ضمانات دولية موقّعة وغير قابلة للانتهاك». ومنها ما نقلته وسائل إعلام أميركية من تصريحات لمسؤلين في كل من البيت الأبيض ووزارتي الدفاع والخارجية، تفيد بأن الأجهزة المعنية في الإدارة الأميركية الحالية بدأت بالفعل في إجراء نقاش جاد في خيار الانسحاب الأميركي من سورية، في ضوء ما ظهر من احتمالاتٍ حتمية الانسحاب من العراق، والذي بدأ يلوح في الأفق فعلا، ما يعني أن إدارة بايدن في طريقها إلى الاقتناع بعدم جدوى البقاء والتورّط في مواجهاتٍ بلا أهداف، خصوصاً في ضوء إصرار جماعة أنصار الله (الحوثيين) على استمرار غلق باب المندب في وجه البضائع الإسرائيلية المتّجهة إلى إيلات، طالما استمرّ الحصار المضروب على الشعب الفلسطيني في قطاع غزّة. وتلك تصريحاتٌ، إن صحّت، توحي بحدوث تغييرات هامة وحاسمة في الموقفين الإسرائيلي والأميركي، وبأن نتنياهو وبايدن بدأ يهيئان نفسيهما بالفعل لـ«النزول من فوق الشجرة».

توقّف القتال نهائيا خلال أيام أو أسابيع قليلة، كما توحي المؤشّرات السابق ذكرها، رغم أن احتمالات استئنافه وتحوّل المواجهات العسكرية الجارية حاليا على أكثر من ساحة في المنطقة إلى حرب إقليمية شاملة ومفتوحة ستظلّ قائمة، على الأقل طوال الأسابيع الأولى من المفاوضات المتعلقة بتبادل الأسرى، ليست بالأمر المستبعد كليا. وفي تقديري، سيكون التوقف النهائي للقتال في قطاع غزّة، إن تم فعلا في ظل الأوضاع الميدانية الراهنة، محصلة لتفاعل ثلاثة عوامل رئيسية:

أولها: يخصّ حركة حماس والشعب الفلسطيني، فقد أثبتت «حماس» قدرتها على التخطيط لعملية عسكرية كبيرة من نوع «طوفان الأقصى»، وعلى تنفيذها بأكبر قدر من الحرفية والجسارة، وتمكّنت من الصمود والتنسيق مع حركات المقاومة الأخرى لإلحاق خسائر فادحة بالجيش الإسرائيلي، ورفض الشعب الفلسطيني النزوح من أرضه وتمسّك بتراب وطنه، رغم كل ما تكبّده من تضحياتٍ هائلة نتيجة عمليات إبادة جماعية مارسها الجيش الإسرائيلي في مواجهته، في ملحمة أسطورية نادرة الحدوث في التاريخ. لذا يمكن القول، من دون أي مبالغة، إن «حماس» قادت الشعب الفلسطيني نحو انتصار حاسم في جولة مفصلية من جولات الصراع العربي الإسرائيلي الممتد.

وثانيها: يخصّ الولايات المتحدة، فهي بحاجة ماسّة إلى الهدوء وعدم تصعيد الصراعات العالمية والإقليمية في مرحلة صعبة، فخلال هذه العام ستجرى انتخابات رئاسية أميركية صعبة، يتوقع أن تحدّد مصير الولايات المتحدة ومستقبلها إلى فترة طويلة مقبلة، كانت إدارة بايدن قد قدّمت كل ما تستطيع من دعم عسكري وسياسي واقتصادي لتمكين إسرائيل من تحقيق انتصار حاسم، لكن فشل الجيش الإسرائيلي في تحقيق أهدافه المعلنة، وارتكابه جرائم حرب وإبادة جماعية، انعكسا سلبا على الإدارة الأميركية الحالية، وقلصا كثيرا من فرص بايدن بالفوز في هذه الانتخابات. لذا لا أستبعد أن يكون التلويح بسحب القوات الأميركية من سورية أحد أدوات الضغط التي مارسها بايدن لإجبار نتنياهو على تغيير مواقفه المتشدّدة واليائسة.

وثالثها: يخصّ الوضع الداخلي في إسرائيل، فقد تفاقمت الصراعات داخل إسرائيل بسبب تصاعد ضغوط عائلات الأسرى الذين بدأوا يدركون أخيرا أن جيشهم «الذي لا يُقهر» بات عاجزاً عن إعادة أبنائهم أحياء، كما تفاقمت ضغوط عائلات قتلى الجيش الإسرائيلي الذين تتزايد أعدادهم باضطراد في حرب استنزاف تبدو بلا نهاية. ولأن «طوفان الأقصى» ضرب إسرائيل بعد فترة قصيرة من إعصار «التعديلات القضائية»، يبدو أن المجتمع الإسرائيلي مرّ بحالة من فقدان الوعي والتوازن، قبل أن يتمكّن من الاستفاقة، ويصبح قادرا على رؤية الوقائع المرّة على الأرض، والتي تجبره على تجرّع كأس الهزيمة.

ماذا بعد أن يتوقف القتال؟ وكيف ستُدار المفاوضات التي ستبدأ عقب هذه الخطوة الحاسمة؟ هل ستقتصر على موضوع تبادل الأسرى، وبالتالي إخلاء السجون الإسرائيلية من كل المعتقلين الفلسطينيين مقابل الإفراج عن المحتجزين الإسرائيليين في القطاع، أم ستتوسّع لتشمل مجمل الأوضاع المتعلقة بتسوية القضية الفلسطينية، وربما مجمل الأوضاع المتعلقة بتسوية الصراع العربي الإسرائيلي ككل، والتطرّق كذلك لمعادلات الأمن الجديدة التي ينبغي رسمُها في المنطقة؟ تلك كلها أمور لم ينشغل بها كثيرون، خصوصا الأطراف الرسمية العربية، ربما لأن غالبيتهم لم يتصوّروا قط أنه يمكن لمسار الأحداث أن يتّجه في أي يوم نحو وجهةٍ تصبح فيها «حماس» قادرة على إنجاز انتصار حقيقي ومؤكّد في مواجهة إسرائيل. لذا على جميع الأطراف العربية أن تدرك في تلك اللحظة الحساسة والحاسمة من تاريخ المنطقة أن الشعب الفلسطيني كله هو البطل الفعلي والمنتصر الحقيقي في هذه الجولة من الصراع، كما عليها أن تدرك أن أخطر ما يمكن أن يحدُث في مرحلة ما بعد توقف القتال أن تواصل بعض الأطراف رسم مواقفها استنادا إلى مواقف تجسّدها خصومات فكرية وسياسية سابقة مع «حماس». ويقيني أن إسرائيل ستبذُل كل ما في وسعها لاستغلال هذه الثغرة إلى أقصى مدى ممكن، ولإقناع حلفائها من الأنظمة العربية بأن «حماس»، المزهوّة بما أنجزته في هذه الجولة، ستشكل خطرا كبيرا عليها في المستقبل، وذلك محض هراء وافتراء. صحيحٌ أن «حماس» لا تمثّل الشعب الفلسطيني كله، لكنها جزءٌ أصيل منه، وبالتالي، لا يكتمل التمثيل الحقيقي للشعب الفلسطيني بدونه، فعزل «حماس» والعمل على تعميق الخلافات والمخاوف المتبادلة بينها وبين بقية الفصائل والأطراف، خصوصا السلطة الفلسطينية، لن يخدم القضية الفلسطينية أبدا، وسوف يضعف الموقف العربي كثيرا في مرحلة ما بعد الوقف الدائم لإطلاق النار.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير في ما جرى للعالم العربي وفيه في أعقاب حرب أكتوبر، فقد انتهت هذه الحرب عن نصر عسكري عربي واضح، غير أن بعض القيادات السياسية في العالم العربي، خصوصا الرئيس أنور السادات، عجز عن استثمار هذا النصر الكبير والبناء فوقه، ومن ثم أدار المفاوضات اللاحقة بطريقةٍ أدّت، في نهاية المطاف، إلى توالي اتفاقيات السلام والتطبيع المنفرد مع إسرائيل، ما أفضى إلى هزيمة عربية شبه كاملة. ولولا بروز محور المقاومة المسلحة، وتنامي دوره في مرحلة لاحقة، لتحوّلت إلى هزيمة عربية شاملة، ولتمت تصفية القضية الفلسطينية نهائيا.

ثلاث قضايا يجب ألا تنجح إسرائيل في الفصل بينها أبداً، ومن ثم على جميع الأطراف الفلسطينية والعربية أن يصرّوا على الربط العضوي بينها في كل مراحل المفاوضات، والتي يتوقّع أن تطول كثيراً، ربما إلى ما بعد انتهاء انتخابات الرئاسة الأميركية المقبلة، ثم الانتخابات التشريعية الإسرائيلية المتوقعة: صفقة الأسرى، وإعمار غزّة، والتسوية الشاملة والنهائية للقضية الفلسطينية، فصفقة غزة يجب أن ترتبط عضوياً ليس بالطريقة التي سيتم بها إعمار غزّة وإنهاء الحصار المفروض عليها فحسب، ولكن أيضا بوجود خطّة مضمونة من مجلس الأمن لتسوية شاملة ونهائية للقضية الفلسطينية تكون مقبولة من الشعب الفلسطيني بممثليه الحقيقيين.

(أكاديمي مصري)

> على جميع الأطراف العربية أن تدرك في اللحظة الحساسة والحاسمة من تاريخ المنطقة أن الشعب الفلسطيني كله هو البطل الفعلي والمنتصر الحقيقي

> أثبتت «حماس» قدرتها على التخطيط لعملية عسكرية كبيرة من نوع «طوفان الأقصى»، وعلى تنفيذها بأكبر قدر من الحرفية والجسارة

عبثُ الميليشيات العراقية

عمار السواد

ربما يسأل المرءُ عما إذا كانت الجماعات المسلحة الشيعيةَ المشكلةُ الميليشياوية الوحيدةُ في الشرق الأوسط. الرد ببساطة إنها ليست الوحيدة. هناك ميليشيات من أنواعٍ شتّى هي مشكلة مستعصية في أكثر مَن بلد. مِن سورية المعارضة السنية والكردية والنظام، مرورا بالسودان وليبيا وحلفاء الحكومة اليمنية والانفصاليين ضدّها، وانتهاء بأفغانستان، للميليشيات كعبٌ عال.

ليست الميليشيات الشيعية الوحيدةَ الممثلةَ معضلةَ الخروج عن سياق الدولة أو تدميرها، إلا أن فرادتها تكمن في أنها، باستثناء مليشيا سرايا السلام العراقية (جيش المهدي سابقا)، التابعة لمقتدى الصدر، جزءٌ من مشروع إقليمي إيراني. قد يكون هناك توجّه تركي مشابه في دعم مليشيات سنية في بلدان عدة. مع هذا، التحالف الميليشياوي والحزبي المرتبط بأنقرة ليس أكثر من جماعاتٍ تدعمها. لم يتحوّل الأمر بعد إلى شبكة عابرةٍ الحدود مترابطةٍ. حلفاء إيران وأذرعها مترابطون بشبكة واسعة مكوّنة من مليشيات محلية، ومربوطة بجهاز مركزي يشبه المليشيا هو الحرس الثوري الإيراني. مجموعُها يكوّن شبكةً عابرةً الحدود. الجزء العراقي منها هو الأكبر عدداً قياساً إلى اللبنانية والسورية واليمنية. غير أنه ليس كذلك من حيث الاهتمام والقيادة والرمزية. لا تساوي التنظيمات المسلحة العراقية أهمية حزب الله والحوثيين في خطاب الحرس الثوري. إذ تسيطر العُلوية الإيرانية والحزب اللهية اللبنانية على مسار تحرّكات الجماعات المسلحة العراقية. لا تقدر الأخيرة على أن تؤثر قيدَ أنملة في توجّهات أو تحرّكات أو تنظيمات حزب الله أو جماعة أنصار الله. إنها مجموعاتٌ تتذيلُ تسلسلَ التراتبيةِ الإدارية في شبكة الحرس الثوري الإقليمية. بل، في أكثر من مناسبة سابقة، إلى جانب قائد فيلق القدس الإيراني السابق قاسم سليماني والحالي إسماعيل قاآني، أدار محمد كوثراني، وهو رجل دين قيادي في حزب الله، مشاورات تشكيل حكومات عراقية.

كوثراني، المدرجُ منذ عام 2013 على قوائم الإرهاب العالمي الأميركية، هو، بحسب برنامج مكافآت من أجل العدالة الحكومي الأميركي، يشرف على تسهيل مهام الجماعات المسلحة العراقية وتدريبها ودعمِها في قمع الناشطين والاعتداء على البعثات الدبلوماسية. ليس الدور جديدا لكوثراني. وفقا لصحيفة الغارديان البريطانية في أكتوبر/ تشرين الأول 2010، أشرف القياديُ في حزب الله اللبناني على اجتماعاتٍ، دارتْ في قم الإيرانية، لرأب الصدع بين الصدر والمالكي في سبيلِ تشكيل حكومة الأخير الثانية.

نموذج مثل هذا يعرض سياقاً لطبيعة التحرّكات الخاضعة لها جماعاتٌ مسلحةٌ شيعية عراقية هي العمود الفقري للحشد الشعبي. أن يلعب حزب مليشياوي من دولة أخرى دوراً حاسماً في أوضاع مفصلية للنشاط الأمني والسياسي في العراق، إنما يبرهن إيقاعَ الشبكةِ الإقليمية المتمحورة حول طهران، ويكشف طابَعها وخريطتها. في النهاية، هو دور إيران، غير أن إعطاء حزب الله اللبناني الدور والمكانة في العراق هو إخضاع دولة لقرار تنظيم سياسي مليشياوي من دولة أخرى.

بدون فعاليةِ شبكةٍ مثل هذه، ستضطر الجماعات العراقية إلى الانخراط في حياة سياسية، وليس في عبث أمني. حيث تفيد الدلائل بأن شعبية الحشد الولائي (الجماعات الموالية لإيران في الحشد الشعبي) في تراجع مضطرد. هي لا تمتلك حواضن شعبية صريحة. تُظهر نتائج الانتخابات منذ عام 2021 تراجعاً جماهيرياً حاداً وصريحاً تمتعت به المليشياتُ زمنَ الحرب ضد «داعش». ذروة الرصيد الشعبي السابق للحشد عرفتْه انتخاباتُ 2018 البرلمانية. وقتها، حصلت قائمة الفتح، المشكّلَة مِن الحشد الولائي، على المركز الثاني. أما مثالُ التراجع الراهن فهو الانتخابات البرلمانية 2021. لم تحصل قائمة الفتح سوى على 17 مقعداً، أي ما نسبته حوالي 5% من مقاعد مجلس النواب البالغة 329. قد يُقرأ هذا سبباً في تحوّل المليشيات من كونها قتالية في مواجهة «الإرهاب» إلى جماعات أقرب ما تكون إلى مافيات متهمة، بل مدانة، بنشاطات «إرهابية». هي تريد أن تسد نقصها بزيادة عنفها.

المليشيات الولائية تعمل على سد النقص، ليس فقط من خلال ما قامت به منذ عام 2019 من تصفية ناشطين وقتل متظاهرين، إنما كذلك في إخضاع مقدرات البلد لخياراتها المسلحة. هي تتوهم، وقبلها الرئيس الأسبق صدّام حسين توهّم، أنها قادرة على إلحاق هزيمة تاريخية بالأميركيين على حساب العراقيين. أظنّ أن قياداتها، ومن وراءهم، يعتقدون أن بمقدورهم فعل ما قامت به حركة طالبان في أفغانستان، متناسين فروقاً جيوسياسية حاسمة. لذا يشنّون هجمات متكرّرة على القوات الأميركية أدّت إحداها إلى مقتل جندي عراقي. ثم، بعد اجتماع موسّع لقيادات جماعات الحشد، قرّر أبرز مسؤول في الحشد الشعبي عبد العزيز المحمداوي (أبو فدك)، إعلان حالة الطوارئ، إثر قيام القوات الأميركية باستهدافات مميتة لقياداتٍ في جماعتي النجباء وحزب الله العراقي ومقراتهما.

الحشد الذي يترأس «أركانه» المحمداوي مؤسّسة لها صفة رسمية وفق قانون صدر عام 2016. قانونيا لا يحقّ له التحركُ بلا أوامر القائد العام للقوات المسلحة، رئيس الوزراء محمد شياع السوداني. إعلانُ حالةَ الطوارئ، والمشاركة المستمرةُ في استهداف القواعد العسكرية العراقية التي تضم مستشارين أو قوات أميركية، فضلاً عن التحركات العسكرية في سورية، تضاف إليها التهديدات والاستفزازات بدون العودة للقنوات الرسمية، كلُّها لم تصدر علانيةً عن الجهة المسؤولة وهي رئيس الوزراء. بمعنى أن الحشد، وهو مؤسسة رسمية، يتحرك خارج القانون المشرّع استمرارَه. خطواتٌ كهذه وغيرها كثير، إنما تنبع من ذهنية مليشياوية في أحسن تقدير، وفي تقدير أقرب إلى الواقع، مافيوية. إرهاب الخصوم، مدنيين أو سياسيين، هو منهجها. بلغ الحال بها أن هدّدت أكثر من مرّة رئيس الحكومة السابق مصطفى الكاظمي بالقتل. بتعبيرٍ آخر، المليشيات واقعٌ له سقف رسمي عراقيٌ، وفي الوقت نفسه، تعمل تحت سقف آخر، سقف انخراطها في الشبكة المتمحورة حول إيران، والخاضعة للحرس الثوري وحزب الله اللبناني. لذا، ليست الاستهدافات المتكرّرة للسفارة والمراكز العسكرية الأميركية قراراً عراقياً. وجود واشنطن في بلاد ما بين النهرين منسقٌ مع رئيس الحكومة، بصرف النظر عما إذا كان سليماً أم سقيماً.

الجهة المعنية بالموضوع قانونياً هي الحكومة. أما استهداف المصالح الأميركية فهو عبثٌ مليشياوي لا ينطلق من الحرص على مصالح العراق. واشنطن وبغداد مرتبطتان باتفاقية أمنية صريحة. يمثّل الوجود الأميركي المحدود في البلاد مشكلة لإيران حصريا، لأنه لا يعطيها أريحيةً في مزيد من أدوار هي أساساً أكثر مما يحتمل. لم تتدخّل واشنطن بقوة في تعيين حكومات عراقية. بالعكس، كان بعض رؤساء الوزراء السابقين ممن لم ترغب بهم، مثل عادل عبد المهدي ونوري المالكي في الدورة الثانية وإبراهيم الجعفري. أصبح هؤلاء رؤساء وزراء بقرار وضغط إيرانيين. لهذا، لا صلة لاستهداف المصالح الأميركية بمصالح بغداد بقدر ما هي غايات طهران نفسها. القوة الوحيدة التي تخشاها إيران في العراق هي الولايات المتحدة.

سيقال إن الأميركيين قَتلوا قاسم سليماني في بغداد. نعم، هذه كانت أول عملية أميركية صريحة ضد إيران. وبصرف النظر عن توصيفها أخلاقياً وقانونياً، هي جاءت ردّاً على استخدام العاصمة العراقية منطلقاً ضد الأميركيين، بلغ مدى الهجوم على السفارة الأميركية في مطلع عام 2020 ومحاولةِ احتلالها. تعامل سليماني مع بغداد كأنها طهران 1979 عندما احتل ثوريوها سفارة واشنطن. لم تحارب الولايات المتحدة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في العراق. العكس هو الصحيح، مَن شن الحرب بين الاثنين على الآخر، منذ عام 2004، عندما كان جيشُ المهدي مرتبطاً بالمخابرات والحرس الثوري الإيرانيين، لغاية مقتل قاسم سليماني بداية 2020، هو إيران وليس أميركا.

من الناحيتين المالية والقانونية، لا يمكن للحشد الشعبي الاستمرار بدون شرعية انتمائه رسمياً للدولة العراقية. بلا التمويل الرسمي لا يقدر على الصمود، خصوصاً أنه بلا حواضن حقيقية. ولولا الخوف من تعريض البلاد إلى مواجهاتٍ مسلحة غير مدروسة العواقب، ولولا تعقيدات محلية وإقليمية، ولو اتخذ رئيس الحكومة، الحالي أو آخر، قرار مواجهةِ هذه الجماعات، لوجدتْ نفسَها مضطرّةً إلى قتال شوارع ضد العراقيين، مثلما كان حال «داعش» و«القاعدة» ومليشيات البصرة خلال عمليات صولة الفرسان عام 2007، في حرب لن تكون فيها سوى عصاباتٍ مسلحة لا أظنّ أن لعبثها المليشياوي حواضنَ شعبيةً كافية.

(كاتب عراقي في لندن)

> لا يمكن للحشد الشعبي الاستمرار بدون شرعية انتمائه رسمياً للدولة العراقية. بلا التمويل الرسمي لا يقدر على الصمود، خصوصاً أنه بلا حواضن حقيقية

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads